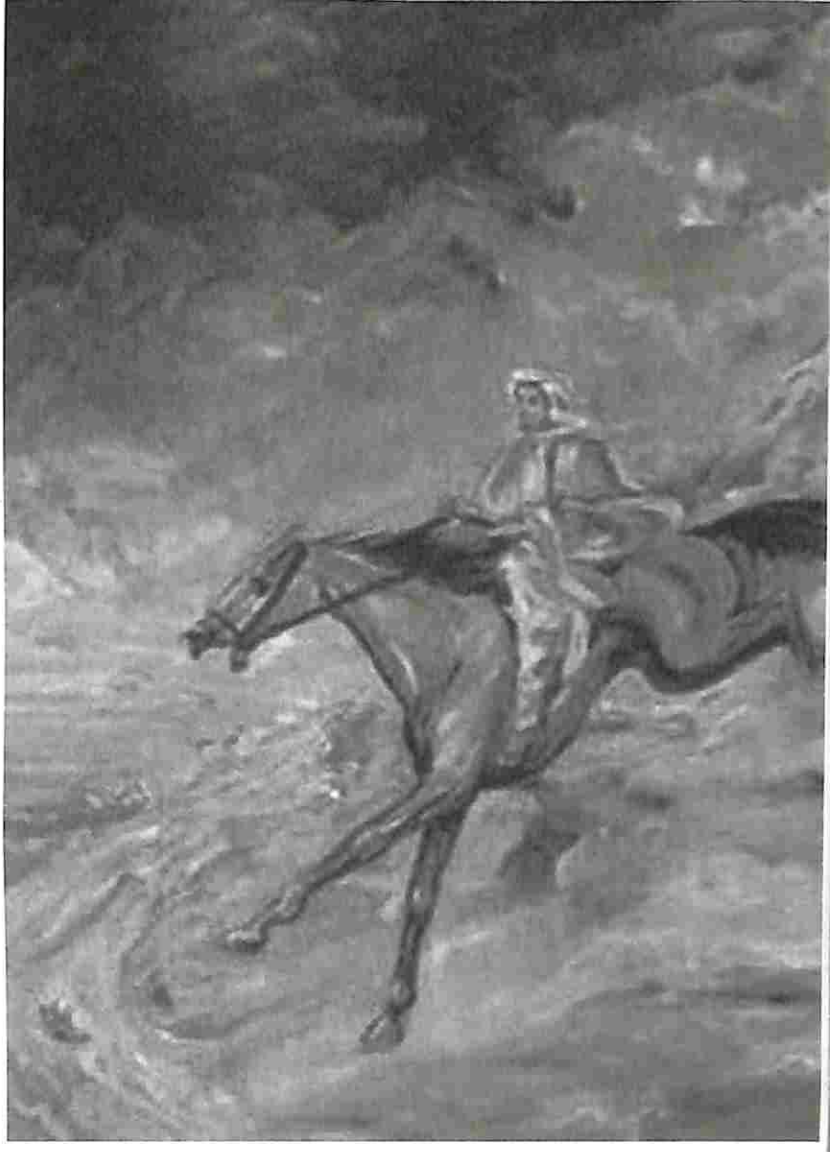

منذ بداية عهد التلقي في معاهد الجامع الأزهر الشريف ونحن الشادين بالأدب نهيم باستجلاء روائعه التي تذخر بها كتب التراث من بدائع الشعر والنثر، ولاسيما تلك الأشعار التي تمجد البطولة وتثني على الأبطال، وتشيد بالأجواد من الرجال متأنقة في اختيار قصص سماحتهم وكريم سخائهم وحسن عرضها، وتسوق من الشواهد والمأثورات ما يلهب حماستنا لأن نعب منها وننهل...!!

صورة الجواد معن بن زائدة في مرآة الشاعر مروان بن أبي حفصة

بقلم: د. أحمد منصور نفادي*
مصر

ومن بين ما علق بالذاكرة من تلك المحفوظات التي بعد العهد بأيام حفظها كثيراً تلك الأبيات التي جاءت في مرثية «مروان بن أبي حفصة» لمعن بن زائدة الشيباني:

ولم يك طالب المعروف ينوي
إلى غير ابن زائدة ارتحالا
وما عمد الوفود لمثل معن
ولا حطوا بساحته الرحالا
وما بلغت أكف ذوي العطايا
يمينا من يديه ولا شمالا
وما كانت تجف له حياض
من المعروف مترعة سجالا

* كلية اللغة العربية جامعة الأزهر - أسيوط - مصر

هذه الأبيات ومثلها مما خلد به ذلك الشاعر كرم معن بن زائدة وجود نفسه علقت بالذاكرة أشد علوق لما كان المرء يلمسه فيها من رصانة وجزالة وخفة وقع على القلوب والأسماع، وبسبب ما توشي به من صدق قائلها، ومبلغ تأثره لموت معن وإحساسه باللوعة لفقده بسبب ما كان يطوق به جيده من إحسان.

ولقد قوي إعجابي بتلك الأبيات وغيرها في ذلك القائد العربي الشهم الجواد، ما غذت مشاعرنا بحبه - صغاراً - كتب المطالعة المدرسية أثناء حقبة التلقي الأولى في مدارس التعليم الأولى من حديث عن سعة حلم معن، وكريم عفوه، ومقابلة إساءة من يسيء إليه من الشعراء بالصفح والإحسان، وخاصة هؤلاء الذين كانت بصيرته الثاقبة وذكاؤه العجيب يوحيان إليه برغبتهم وأمثالهم من الشعراء القادرين في سبر أغوار نفسه والوقوف على حقيقة ما شاع عنه في الأوساط المختلفة من حلم وجميل عفو، فكان يبهرهم بما يفيض عليهم من سخاء ينقلهم من السماع إلى المشاهدة، ويطلق ألسنتهم بعد ذلك بمدحه والثناء عليه، ومن ذلك ماروته تلك الكتب عن ذلك الأعرابي الذي دخل عليه وراح يقول له:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة

وإذ نعلاك من جلد البعير؟

فيقول معن مبتسماً:

نعم. أذكر ذلك .. ولا أنساه!

فيضيف الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً

وعلمك الجلوس على السرير

فلا يزيد معن عن حمد الله تعالى وشكره.. ولكن الأعرابي يقول:

فجد لي يابن ناقصة بمال

فإني قد عزمت على المسير

فيقرب معن الرجل ويأمر بمضاعفة عطائه.

ومن ثم فإن هذه القصة وأمثالها مما يغلب على الظن أن الخيال لعب دوراً كبيراً في اختلاق أحداثها - كانت ذات تأثير بالغ في استهواء أفئدتنا وسحر ألبابنا واجتذابنا إلى كتب التراث الأدبي، نخلو إليها ونقلب صفحاتها، ونطيل النظر فيها، ونجد متعة بالغة في قضاء ساعات الفراغ معها واستجلاء روائعها.

ولقد كان معن بن زائدة الشيباني.. في طليعة الشخصيات العربية التي أحببتها وعشقت الوقوف على أخبارها، ومطالعة الأشعار التي قيلت فيها، وإن كنت ولازلت أجد بنفسي رغبة وانصرافاً عن مروان بن أبي حفصة لتحامله على أهل البيت النبوي الكريم، ومضاعفته لهمومهم بمناصرته لبني العباس عليهم، وليته قال ما سولت له نفسه أن يقول في مديح العباسيين ورفع أقدارهم إلى عنان السماء دون أن يغمز أهل البيت الكرام أو ينتقص من أقدارهم، ولكنها طبيعة عصره التي خربت فيها ذمم الكثيرين وماتت ضمائرهم وباع فيه طلاب المنفعة دينهم بدنيا غيرهم...!!

وإذا كان الشعر الصادر عن أحاسيس صادقة ومشاعر حقيقية يحدث أثره المشابه لمشاعر قائله في نفوس قارئيه أو سامعيه وينقلهم على أجنحة خياله إلى ذلك العالم الذي عاش فيه الشاعر خلال معاناته لتجربته، التي أطال تأملها والتعمق فيها حتى امتلأت بها جوانحه ودبت في نفسه حمياها، فرتب أفكارها وأجاد عرضها وأحسن انتقاء ألفاظها الموحية بها والمعبرة عنها، فإن من يقرأ قصائد «مروان بن أبي حفصة» في مديح معن في حياته، وفي رثائه بعد موته يشعر أن هذا الشاعر قد أخلص لفنه كل الإخلاص، وصدق مع نفسه كل الصدق، فلهج بمدائحه حباً واعتزازاً، كما زفر برثائه حزناً والتياعاً..!

نعم. إننا نقرأ لمروان في معن فنتذكر تلك الأشعار التي أثرت في نفوسنا بصدقها، كمدائح البحتري ومراثيه في الخليفة المتوكل، ومدائح المتنبي في سيف الدولة، وبكاء متمم ابن نويرة على أخيه مالك حتى تدمع عينه العوراء أو بكاء ابن اللبانة على المعتمد بن عباد الإشبيلي... إلخ. ولقد كان معن بن زائدة عربياً صحيحاً ينتهي نسبه إلى مطر بن شريك من ذُهل بن شيبان.. وكان كما روي شجاعاً مقداماً وافر العطاء كثير المعروف واسع الحلم، كما كان شاعراً مجيداً، ذكياً بارع الحيلة حسن التصرف في الأمور، وقد كان في أول أمره متصلاً بالأمويين

متنقلاً باسمهم في الولايات، ثم انقطع في أواخر أيامهم إلى «يزيد ابن عمر بن هبيرة الفزاري» أمير العراقين، فلما قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ، وعملت على إخضاع كل أرجاء الخلافة لسلطانها والقضاء على من يظل على ولائه للأمويين أو يعتز بذكراهم، جرت مناوشات بين جيوش العباسيين وابن هبيرة ودار القتال بين الفريقين أبلى معن بن بلاءً حسناً في ذلك القتال، فلما تم النصر للعباسيين وقتل ابن هبيرة، هرب معن من وجوه العباسيين الذين جدوا في طلبه واستتر عنهم فكان لا يخرج إلا متنكراً، وظل على ذلك طوال خلافة أبي العباس عبدالله السفاح، وصدر خلافة أبي جعفر المنصور حتى وقعت فتنة الراوندية.. من أولئك الفرس الذين أرادوا أن ينتقموا لمقتل أبي مسلم الخراساني بقتل الخليفة المنصور عن طريق الحيلة حيث أحاطوا بقصره منادين بألوهيته معلنين بكفرهم أن روح الله حلت فيه، فخرج المنصور إليهم ظناً أنهم لن ينالوه بسوء، فأحاطوا به وكادوا يقتلونه لولا أن تقدم معن بن زائدة - منتهزاً الفرصة - في صورة مقاتل ملثم، وقاتل بين يدي المنصور قتال جندي مخلص يفتدي الخليفة بنفسه، وظل يقاتل بشجاعة إلى أن نجح في تفريق الثائرين وتمكين حراس الخليفة من التغلب عليهم، وكان المنصور يلحظ ذلك، وتمتلئ نفسه بحب ذلك الملثم المجهول الذي يبلي بين يديه بلاءً حسناً ويتعجل معرفة شخصيته لإكرامه والإغداق عليه، فلما تحقق النصر وأخمدت الفتنة أقبل على معن يقول له في إعجاب:

- من أنت ويحك!؟

فيجيبه معن: أنا طلبتك يا أمير المؤمنين معن بن زائدة الشيباني. فيقول له المنصور، وقد ثبت له إخلاصه، وصدقه في التكفير عن ماضيه وتقديم دليله على ذلك:

«أمنك الله على نفسك ومالك وأهلك.. مثلك يصطنع، ثم أكرمه وكساه وزينه.. ثم دعاه بعد مدة فقال له: «إني قد أهلتك لأمر فكيف تكون فيه؟ قال: كما يحب أمير المؤمنين. قال قد وليتك اليمن فابسط فيهم السيف حتى ينتقض حلف ربيعة واليمن. قال: أبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين، فولاه اليمن، فتوجه إليها، فبسط فيهم السيف.

ولقد استطاع معن بذكائه وكياسته وتمام فطنته وحضور بديهته أن يكتسب ثقة المنصور، وأن يكون عند حسن الظن ومحل تقديره على الرغم من حساسيته المفرطة تجاه أي تصرف يشعره بروح المنافسة لدى أي رجل من رجاله مهما كانت ضآلة هذه الروح!

روى أبو الفرج في أغانيه أن معنا قدم من اليمن بعد توليته عليها، فدخل على المنصور فقال له: بلغ أمير المؤمنين عنك شيء لولا مكانك عنده ورأيك فيك لغضب عليك.. قال وماذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: إعطاؤك مروان بن أبي حفصة ألف دينار لقوله فيك:

معن بن زائدة الذي زيدت به
شرفا على شرف بنو مروان
إن عدّ أيام الفخار فإنما
يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال معنى: والله يا أمير المؤمنين ما أعطيته لهذا الشعر، وإنما أعطيته لقوله:

مازلت يوم الهاشمية معلما
بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت وقاءه
من وقع كل مهند وسنان

فاستحيا المنصور، وقال: إنما

أعطيته ما أعطيته لهذا القول؟؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، ووالله لولا مخافة الشناعة عندك لأمكنته من مفاتيح بيت المال وأعطيته وأبحته إياه. فقال المنصور: لله درك من أعرابي! ما أهون عليك ما يعز على الرجال وأهل الحزم.

ولقد كان معن بن زائدة كريماً حقاً، فهو في سعة جوده، وغزارة إحسانه وكثرة عطاياه جدير بأن يقرن بكرماء العرب الذين ضربت بفيض نداهم الأمثال.

حكى ابن خلكان في وفيات الأعيان أن أعرابياً وفد على معن بن زائدة فمدحه وطال مقامه على بابه ولم يحصل على جائزته، فعزم على الرحيل فخرج معن راكباً، فقام إليه الأعرابي وأمسك بزمام دابته ثم قال:

وما في يديك الخير يا معن كله
وفي الناس معروف وعنك مذاهب
ستدري بنات العم ما قد أتيته
إذا فتشت عند الإياب الحقائب

فأمر معن بإحضار خمس نوق من كرام إبله وأوقرهن له برا وميرة وثيابا وقال: انصرف يا ابن أخي في حفظ الله إلى بنات عمك، فلئن فتشن الحقائب ليجدن فيها ما يسرهن، فقال صدقت وأيم الله.

والمتتبع لما قاله مروان بن أبي حفصة في شمائل معن يجد صورة مثالية لرجل سخي شجاع يفخر به الجود كما يفخر به أبناء جلدته من بكر وتغلب، فبابه ملاذ للجائعين والمرتاعين:

إلى باب معن ينتهي كل راغب
يُرجي الندى أو خائف يترقب
جرى سابقا معن بن زائدة الذي
به يفخر الحيان بكر وتغلب
فبرّز حتى ما يجارى وإنما
إلى عرقه ينمى الجواد وينسب
محالف صولات تميت ونائل
يرش فما ينفك يرجى ويرهب

كما أنه سد منيع دون كل معضلة يحاول الأعداء أن يرموا بها الدين أو الشرف. إنه يكنز التقوى ومكارم الأخلاق ومحامد الشيم إذا ما كنز غيره ذهباً أو فضة ويخطئ كثيراً من يظن من أجواد الرجال أنه يستطيع إدراكه في بذله وسخائه:

كفى القبائل معن كل معضلة
يحمي بها الدين أو يرمي بها الحسب
كنز المحامد والتقوى دفاتره
وليس من كنزه الأوراق والذهب
قل للجواد الذي يسعى ليدركه
أقصر! فمالك إلا الفوت والطلب

وهو الغيث النافع كرماً والأسد الهصور المدافع عن قبة الدين والبطل الشجاع الذي عركته الحرب وعركها وأجبر أعداءه على أن يفروا أمامه خائفين خاضعين:

تدارك معن قبة الدين بعدما
خشينا على أوتادها أن تنزعا
وما أحجم الأعداء عنك بقية
عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا
لقد دوخ الأعداء معن فأصبحوا
وأمنعهم لا يمنع الذل مدفعا
لقد أصبحت في كل شرق ومغرب
بسيفك أعناق المريبين خضعا
فلو مدت الأيدي إلى الحرب كلها
لكفوا وما مُدوا إلى الحرب إصبعا

لقد حرم هذا الهمام السخي كلمة لا على نفسه في حالتي السلم والحرب، فلا يدري واصفوه أي يوميه أفضل:

تجنبَ.. لا في القول حتى كأنه
حرام عليه قول.. لا.. حين يسأل
تشابه يومان علينا فأشكلا
فلا نحن ندري أي يوميه أفضل
أيوم نداه الغمر أم يوم بأسه
وما منهما إلا أغر محجل

ومن كان بهذه الصفات الجليلة، فحق على الشعر أن يبكيه ويبالغ في رثائه وأن يقول شاعره في بكائه عليه:

فلست بمالك عبرات عين
أبت بدموعها إلا انهمالا
وفي الأحشاء منك غليل حزن
كحر النار يشتعل اشتعالا
لقد أورثتني وبنيّ همّا
وأحزانا نطيل بها اشتغالا
فلهف أبي عليك إذا العطايا
جعلن مني كواذب واعتلالا
ولهف أبي عليك إذا الأسارى
شكوا حلقا بأسوقهم ثقالا
ولهف أبي عليك إذا اليتامى
غدوا شعثاً كأن بهم سلالا
ولهف أبي عليك إذا القوافي
لمتدح بها ذهبت ضلالا
يرانا الناس بعدك فلّ دهر
أبى لجدودنا إلا اغتيالا
فنحن كأسْهُم لم يبق ريشا
لها ريبُ الزمان ولا نصالا■